

المبحث الثالث

توحيد الربوبية

ومعنى توحيد الربوبية: هو الاعتقاد الجازم بأن الله جل جلاله رب كل شيء ومالكة وخالقه ومدبر أمره ورازقه، وأنه وحده الذي ينفع ويضر ويحيي ويميت، وأنه سبحانه وحده المتصرف بهذا الكون وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى ولا مُعطي لما منع، بيده الخير وإليه ترجع الأمور وهو على كل شيء قدير⁽¹⁾، وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام، بل لا بد أن يأتي مع ذلك بلازمة من توحيد الإلهية، لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مُقرّون بهذا التوحيد لله وحده، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: 38].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٠﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ ﴿٤١﴾ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٤٢﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِزُ ﴿٤٣﴾ قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيزُ وَلَا يُجَاوِزُ عَلَيْهِ إِلَّا كُنتُمْ

تَعْمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيُؤْتُونَكَ اللَّهُ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَنزَلْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَأَنزَحَ لَكَذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ [المؤمنون: 84 - 92].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: 106].

وغير ذلك من الآيات من القرآن كثير مما يدل على اعتراف الكفار بخالقهم وإقرارهم به⁽¹⁾، وإنما عبدوا من دون الله ما عبدوا ليجعلوهم وسائط وشفعاء بينهم وبين الله، ومع ذلك يتخلون عنهم إذا نزلت بهم الشدائد ووقت الاضطراب، ومع هذا الإقرار فلم تغن عنهم شيئاً ولم ينتفعوا به، إذ لم يصبحوا به مسلمين ولم تعصم أموالهم ولا دماؤهم ولا أعراضهم، لأنهم أنكروا توحيد الألوهية، وأشركوا بربهم، ولم يلتزموا بلأزم ما أقروا به، إذ إن توحيد الربوبية يلزم منه توحيد الألوهية⁽²⁾، وهو إفراد الله ﷻ بجميع أنواع العبادات.

إن المؤمن يشعر بطمأنينة كبيرة وهو يتأمل في ملكوت الله تبارك وتعالى فيرى عظمة الله في خلقه وحكمته البالغة في تدبيره ﴿أَمَّنْ يَمِشُ مِجْبَاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمِشُ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: 22]

والحديث عن عظمة الله يملأ القلب سكينه، والتدبر في ملكوته

(1) المباحث العقديّة المتعلقة بالأذكار (1/353).

(2) اقتضاء الصراط، ص: (460).

يملاه إيماناً، فحق للشاعر أن يتساءل بعد جولة تأمل في مخلوقات الله سبحانه فقال:

قل للوليد بكى وأجهش بالبكاء	لدى الولادة ما الذي أبكاك
وإذا ترى الشعبان ينقث سُمه	فاسأله من ذا بالسموم حشاك
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو	تحيا وهذا السم يملأ فاك
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت	شهداً وقل للشهد من حلاك
بل سائل اللبن المصفى كان	بين دم وفرث ما الذي صفأك
واسأل شعاع الشمس يدنو وهي	أبعد كل شيء ما الذي أدناك
يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي	بالله جلّ جلاله أغراك؟ ⁽¹⁾

إن التأمل في خلق الله ﷻ وملكوته يقود إلى رسوخ الإيمان به سبحانه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝﴾ [آل عمران: 190-191].

فتأمل وسبح وتعبد لمن خلقك وذراك وإليه المصير⁽²⁾.

إن من أبرز صفات الله ﷻ الدالة على ربوبيته صفة الخلق وما

(1) مع الله الاسم الأعظم، ص: 79.

(2) المصدر نفسه، ص: 79.

تميزت به، من إتقان وبديع صنع لا يكون إلا من رب العالمين، فالله ﷻ هو الذي خلق المخلوقات ومن عظيم إتقانه أن سَنَّ لها قوانين وسنناً ثابتة منها العام ومنها الخاص عليها مدار انضباطها، وهذه السنن لا يمكن إضافتها لغير الله سبحانه وتعالى، لأنه هو المتفرد بالربوبية وحده لا شريك له⁽¹⁾.

فالسُنن العامة تخضع لها جميع الكائنات في وجودها المادي وما يمر بها من حوادث مادية، كنمو الإنسان، وحركته ومرضه وما شابه ذلك، وما تقع من حوادث كونية، كنزول المطر وتعاقب الليل والنهار وغيرها من متعلقات الوجود المادي لمخلوقات الله ﷻ. ولقد وجه الأنبياء والرسل أقوامهم إلى المشاهدة والنظر، والتأمل والتفكير في مثل هذه السنن التي تتضمن دلالات كبيرة على عظمة الخالق وحُسن تدبيره وبديع خلقه لأمره وتدبيره ﷻ، وفق سننه ونظامه وقوانينه التي وضعها بقدرته وحده لا شريك له، ومن ذلك قول نوح عليه السلام لقومه قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۖ وَاللَّهُ أُنَبِّئُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ثُمَّ يُعَذِّبُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۖ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۖ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۖ﴾ [نوح: 15-20]⁽²⁾.

وأما السنن الخاصة فهي تتعلق بخضوع البشر لها باعتبارهم أفراداً وأممًا وجماعات، خضوعاً يتعلق بتصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم

(1) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، ص: 29.

(2) المصدر نفسه، ص: 29.

في الحياة، وما يكونون عليه من أحوال وما يترتب على ذلك من نتائج كالسعادة والشقاء، والعز والذل، والقوة والضعف، والنصر والهزيمة، ونحو ذلك من الأمور الاجتماعية في الدنيا وما يترتب عليها من جزاء في الآخرة سواء كان عذاباً أو نعيماً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128]، أي الخاتمة المحمودة أو النهاية في الدنيا والآخرة لمن اتقى⁽¹⁾، وكذلك ما ورد في القرآن حول غزوة أحد مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: 160]. ومن سمات هذه السنن بنوعيتها الثبات والإطراد والعموم، قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 62]، أي لن تجد لها تحويلاً وتغييراً، بل هي ثابتة دائمة⁽²⁾، فما من نبي إلا أرشد قومه إلى هذه السنن بغية توحيد الخالق، وخاصة النوع الثاني منها التي تتعلق بالأحوال الاجتماعية، ففي الاعتبار والاعتاظ بها تتحقق الاستقامة المطلوبة في سلوك البشر، وتتحقق الضوابط المرجوة في سبيل تحقيق العبودية الخالصة لله ﷻ، لذا كان من أهداف إيراد القصص في القرآن الكريم الاعتاظ بما جاء فيها من ذكر لهذه السنن، كسنة الأخذ بالأسباب، وسنة التدافع، وسنة الله في نصر المؤمنين، وسنة الله في الفتنة والابتلاء وسنة الله في الظلم والظلمة⁽³⁾ وغيرها.

(1) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، ص: 30.

(2) زبدة التفسير، محمد سليمان الأشقر، ص: 560.

(3) منهج الدعوة إلى العقيدة، ص: 30-36.

إن توحيد الربوبية هو أعظم برهان ودليل على توحيد الألوهية وهو بالنسبة له كالمقدمة بالنسبة للنتيجة، فمن اعتقد أن لهذا الكون العظيم الواسع خالقاً ومدبراً وقاهراً ومتصرفاً فيه، يفعل ما يشاء وله القدرة الكاملة على تبديله وتغييره وأنه الرازق لجميع المخلوقات بيده النفع والضرر، ويمنع ويعطي، ويميت ويحيي، وينجي عند الشدائد، والكربات، ويجب المضطر عند اضطرابه، من اعتقد ذلك صدقاً تولد في قلبه حب ذلك الخالق العظيم، وهذه المحبة لا بد أن تثمر خضوعاً وانكساراً وتذلاً، وانقياداً وطاعة وعبودية ورقاً لمالك هذا الكون، وكثيراً ما يذكر الله سبحانه في كتابه الناس جميعهم بأنه هو المنعم عليهم والمتفضل عليهم بالخلق والرزق وجميع النعم، فيرشدهم بذلك لعبادته وحده لا شريك له⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٣﴾ [فاطر: 3].